فكرة النسبية في التعامل مع الآخر

في الحياة نور وظلام.. وثنائية الخير والشر إحدى أركان الوجود، ولقد جاء الإسلام ليزيد نماء الخير، وليضيق دائرة الشر، وليجعل ما يتعاوره الخير والشر خيراً خالصاً... ولئن ذهبنا نتتبع أخلاق الجاهلية وأخلاق الإسلام فإننا لا نكاد نجد خيراً أبداً امتازت به الجاهلية على الإسلام، فقد عمل الإسلام على تبني كل الأخلاق الحميدة التي امتاز بها العرب قبل الإسلام ونمّاها. وهذه الأخلاق قد تكون أصلية وقد تكون فرعية، ظاهرة وباطنة، فمثلاً الالتزام بالوعد وإن كان فيه ضرر يعد فضيلة بالأصل، لأنه مبني على الوفاء بغض النظر عن استعمالاته ومجالاته.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتب السيرة من أن عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم كان أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما أتم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونه، أخبرهم بنذره فأطاعوه، فكتب أسماءهم في القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش ولا سيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري؟، فأشاروا عليه أن يأتي بعرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشرة من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل، حتى يرضى به، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبد الله

وعشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشراً عشراً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها، فنحرت عنه، ثم تركها عبد المطلب لا يرد عنها إنساناً ولا سبعا، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشراً من الإبل، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» يعني اسماعيل وأباه عبد الله[٢].

إن هذا الالتزام القوي بالنذر ينبني على عقيدة راسخة، والأنفس الكبيرة عقائدها راسخة سواء في الخير أو في الشر، أما المتذبذبون المنافقون الذين يميلون مع كل ريح فعقائدهم هشة لا تكاد تنعقد حتى تنحل.. لذلك جاء في الحديث: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

إن الأحكام المطلقة لا يمكن أن تصلح في واقع لا يمكن أن يكون إلا نسبياً، لذلك كان من الحكمة النبوية التعامل مع كل شخص حسب واقعه، فمنهم الذي يرضى منه ألا يزيد على الصلوات الخمس، وهو الأعرابي، ومنهم من يرى عدم قيامه الليل نقيصة (وهو ابن عمر).

ثم أن النظرة النسبية في مجالها لا تفوّت جانب الحق فيما يختلط فيه الحق بالباطل، لذلك لم ينكر الله تعالى منفعة الخمر والميسر للناس، بل إن الميسر كان معدوداً دليل خلق عند العرب. جاء في الرحيق المختوم:

.. ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم، لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه، أو ما كان

٢ ـ الرحيق ص ٦٠

يفضل عن سهام الرابحين، ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر، وإنما يقول «وإثمهما أكبر من نفعهما» (٢: ٢١٩).

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل بالقطمير من الشرك والشر في دعوته، لكنه كان يتبنى ما كان عند الجاهليين من الخير، ومن ذلك إكرامه لسفانة بنت حاتم الطائي، ولعل أروع مثال على ذلك حلف الفضول (المذكورة تفاصيله في غير موضع من هذا الكتاب).

إن الكفر والرد لكل الهيئات والقوانين مهما كان فيها من نصرة للحق وللضعفاء أمر لا نجده أبداً في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لذلك تخطئ بعض الجماعات الإسلامية حين تعلن الحرب على الهيئات الدولية والإقليمية والوطنية، من جمعيات لحقوق الإنسان وهيئات للإغاثة، بدعوى أنها غير إسلامية.

إن الالتزام الذاتي بمثالية الحق الصرف في كل شيء لا يمنع الالتقاء مع الآخرين في النقاط التي يلتزمون فيها الحق والنفع، مهما كانوا مفسدين في غيرها.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم التقى مع المشركين في حلف الفضول، لكنه لم يلتق معهم في عبادة الأصنام مثلاً.. ولقد قالها صلى الله عليه وسلم واضحة صريحة عن الحلف: «لو أدعى به في الإسلام لأجبْتُ».

إن عدم إجابة مثل هذه الأحلاف يعد خروجاً عن الجادة وتنطعاً، وهذا لا يكون إلا إذا كانت هناك نافذة مفتوحة على الآخر، أما إذا تم إعلان الحرب على هذا الآخر جملة وتفصيلاً فلا يمكن الالتقاء معه أبداً.

لذلك على الجماعات الإسلامية أن تحافظ على نقطة التقاء مع الآخرين وبهم، لأن هذه النقطة مهمة، وهي ضرورية لتحسيس الآخر أننا لسنا ضده، ولكن ضد باطِلِهِ، ونحن نجتنب باطلَهُ لكننا نتعاون معه في الحق.. ومن هذا أن للأحلاف في الإسلام أهميتها الكبرى، وبتأمل مسارات العديد من الجماعات الإسلامية، يظهر جلياً أن فكر هذه الجماعات لم يكن يتسع أو يستوعب مثل هذه الأحلاف، لسبب واحد، وهو أن المعتبر عند هذه الجماعات كان دائماً الاعتبار العقدي الكلي القائم على الولاء والبراء، بينما المعتبر في الحلف هو أحد أمرين أو الأمران معاً، هما:

١ ـ المصلحة.

٢ ـ الاعتبار التجزيئي للحالة.

فمثلاً نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول عن حلف الفضول: «لو أدعى به في الإسلام لأجبت» رغم أن الأطراف المشاركة في الحلف كانت مشركة، غير أن العبرة هنا بموضوع الحلف دون النظر إلى من وراءه، فموضوع هذا الحلف هو محاربة الظلم ومحاربة الظلم من أمهات الفضائل كما هو معروف عند الأصوليين... ورفع الظلم لا يشترط فيه الإسلام ولا التقوى، وقد ثبت أن الله ينصر دينه بالرجل الفاجر وبأقوام لا أخلاق لهم، وقد كان أبو طالب، عم الرسول صلى الله عليه وسلم، حامياً له ضد تحرشات قريش دون أن يكون مسلماً.

إن الحديث عن الأحلاف كاستراتيجية لابد أن يمر بنا بدءا على حلف الفضول.

فـ«الخمس عشرة من عمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب ابن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفاً، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس، وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ينبل على عمومته، أي يجهز لهم النبل للرمي».

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام، تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي لسنه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لايجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت.

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها، ويقال في سبب هذا الحلف أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف، عبد الدار ومخزوما، وجمحا وسهما وعديا، فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعا صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: مالهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول فقاموا إلى العاص بن وائل

فانتزعوا منه حق الزبيدي بعد ما أبرموا الحلف»[٣].

إن التشنج الذي تبديه الكثير من الجماعات تجاه الآخر انطلاقاً من معطيات دينية، هو في الحقيقة قراءة خاطئة لحزمة من النظرات الإسلامية تجاه الوقائع والأحداث، ذلك لأن التعامل مع الآخر لا يخضع لرؤية كلية شاملة ثابتة لا تتغير، بل لنظرة قائمة على النسبية، إن هذه النسبية تتطلب أو لنقل تقتضي النظر إلى الشخص الواحد من زوايا وجوانب عدة، بعضها سيء نفارقه فيه، وبعضها حسن نلتقي فيه معه.. ومثال ذلك ما كان من أمر أبي طالب، عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقد كان رجلاً مشركاً، إلا أن ذلك لم يمنع أن تكون له جوانب أخرى استفاد منها النبي صلى الله عليه وسلم، بل والإسلام.

وخلافاً لذلك فإن النظر إلى رجل فيه خيرٌ وشرٌ نظرة شمولية يُردّ فيها خيره بسبب شره، يعد «رمياً للطفل مع غسيله»، كما هو المثل الشائع، فهل يجوز رمي الطفل بسبب أدران غسيله؟!!

إن مبدأ الاستفادة من النقاط المضيئة الموجودة ضمن المجالات المظلمة مبدأ قامت عليه الاستراتيجية الإسلامية، خاصة في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وفي السيرة أمثلة كثيرة من ذلك، منها الهجرة إلى الحبشة، إذ أن الحبشة في المنظور الشمولي العام ـ لا النسبي التجزيئي ـ هي دولة لم يمض وقت طويل على هجومها على الكعبة عبر أبرهة صاحب الفيل المذكور في القرآن، غير أن هذا التاريخ الأسود الذي لم تمض عليه سنوات كثيرة كانت بين محاولة أبرهة هدم الكعبة وبين الهجرة إلى الحبشة، لم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من استثمار

٣ ـ الرحيق المختوم ص ـ ٦٧، ٦٨

النقطة المضيئة في التاريخ والواقع الأسود لهذه الدولة، وكانت تلك النقطة المضيئة هي أن ملك الحبشة (النجاشي) «لا يُظلم عنده أحد».. إذن فإن العدْل هناعند النجاشي، في موضوع الهجرة إلى الحبشة، كما هناك في حلف الفضول، لا يشترط في مقيمه أن يكون مسلماً.

لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن «أصحمة» النجاشي ملك الحبشة، ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، لذلك أمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن.

إن المعتبر هنا هو الحفاظ على الدين.. فلو أن المسلم لا يمكنه الحفاظ على دينه إلا بوجوده في بلد كافر عادل، لكان ذلك أوجب عليه من إقامته في بلد إسلامي ظالم يقوم على فتنة الناس عن دينهم ومعتقداتهم.. وذلك لأن العبرة بالدين الذي يحتاج إلى الحرية والعدل... وهنا يظهر قوله تعالى للذين يستضعفون ويفتنون عن دينهم ببقائهم في مكان واحد لا يبرحونه: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا؟!!﴾ (قرآن كريم).

إن العبرة هنا بالاستضعاف والفتنة، والهجرة مرتبطة بالاستضعاف والفتنة، لا بالواقع الديني الذي يحكم هذا المكان أو ذاك..

إن طلب الكليات المضيئة وعدم القبول بما يخالطها من الجوانب المظلمة، أمرٌ يَحرم المسلمين الكثير من الفرص الشرعية التي يمكن أن تكسب الدين انتصاراً وأتباعه قوة.

إن فكرة التجزيء والنسبية موجودة في كثير من الآيات مثل قوله تعالى:

﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها

ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم معاً﴾.

ففي هذه الآية نهى الله عن القعود مع الكافرين والمستهزئين بآيات الله حال كفرهم واستهزائهم بها فقط، أما إذا خاضوا في حديث غيره فيمكن القعود معهم.. لذلك فإن المعتبر هنا ليس هو من نقعد معه، ولكن إلى أي حديث نقعد. وهذا أصل عظيم لا يسع المسلمين جهله.

ولا شك أننا حين نتحدث عن الاستفادة من أجزاء حسنة موجودة في كيانات سيئة، فإننا نقصد ما يمكن تجزيء خيره عن شره، أما ما لا يكون كذلك فلا، ومن هذا الأخير ما رواه ابن اسحاق بسنده، قال:

اعترض رسول الله صلى عليه وسلم ـ وهو يطوف بالكعبة ـ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية ابن خلف والعاص بن وائل السهمي ـ وكانوا ذوى أسنان في قومهم ـ فقالوا: يامحمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وان كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي ديني﴾ (الكافرون).

إن هذا الأمر لا يقبل التجزيء، فلذا لا يكون اعتباره في باب الاستفادة من خير الآخر، ذلك لأن شرط العبادة الإخلاص، وإشراك آخر فيها مع الله غير جائز ولو لطرفة عين في العمر كله.

إن تجزيء ما لا يتجزأ هنا أمر غير ممكن ومثاله في القرآن في الذين

أرادوا التفريق بين الله ورسله، فقالوا: ﴿نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ إن الإيمان واحد لا يتجزأ، وهو شبيه هنا بقلب الأم في حب أولادها السبعة، إذ أرادت يوماً أن توزع عليهم قلبها، وانتظر كل واحد من هؤلاء نصيبه سُبُعاً من القلب، لكن كل واحد فوجئ بقلب كامل بين يديه وكانت القلوب سبعة، وأخذ كل واحد قلباً كاملاً لأن القلب ليس قوقعة سلحفاة مقسمة إلى أجزاء كأجزاء خريطة العالم.. القلب واحد، والحب واحد.. فكذلك الإيمان فيه... الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالرسل والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالكتب، والإيمان بالقضاء والقدر، كل ذلك إيمان واحد، ومتى نقص منه جزء انثلم، وتحول إلى كفر.. لذلك قال تعالى في القرآن الكريم:

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقاً، واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

غير أن بعض الدعاة والجماعات الإسلامية ينظرون إلى الأمور المتجزئة بهذه النظرة التي لا تقبل التجزيء، لذلك تحرم في أفكارهم التحالفات الموضوعية، التي هي ركن من أركان الممارسات السياسية الدولية... ثم أن هناك فرقاً شاسعاً بين النظرة العقدية الدينية والنظرة السياسية، فرقاً كامناً في الفاصل الموجود بين العزيمة التي هي صبغة أصل الحكم الديني والرخصة التي هي متطلب الواقع والظرف.. إن قوله تعالى: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله» يدل دلالة واضحة على عدم جواز موادة من حادّ الله، والمشرك محادّ لله، والمتشبث بالمسيحية أو اليهودية بعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، محادّ لله، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يحب عمه أبا

طالب.. والحب مودة، وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: «إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء»، فهناك من المشركين من يحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل عمّه.

كما أن المسلم قد يتزوج كتابية، وهو أمر مشروع، والله قال: «وجعل بينكم مودة ورحمة» فبين الزوج وزوجته مودة ورحمة رغم اختلاف الدين، والأمر خال من تضارب الآيات، بل فيه تمام انسجامها وانتظامها.. وهذا الانسجام لا يمكن أن يفهم خارج النظرة التجزيئية النسبية التي تكلمنا عنها، إذ أن الموادة كالمحادة يمكن أن تكون نسبية جزئية، وقد نكره هذا الشخص في جوانبه التي يحاد فيها الحق، لكننا نحب فيه جوانب نصرته لهذا الحق، تمام الآية يوضح ذلك: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم».

فهل يمكن أن يفهم من هذا أن المؤمن لكي يكون مؤمناً بالله وباليوم الآخر فعلاً وصدقاً يجب أن يحاد أمه وأباه وأبناءه..؟!!

أين هذا الفهم من تعامل إبراهيم عليه السلام مع أبيه المشرك؟ ومن تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه المشرك؟! ومن قوله تعالى «وإن جاهداك على أن لا تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً»؟! فكيف تجتمع المصاحبة بالمعروف رغم الشرك، مع البغض والمحادة بسبب الشرك؟!!

هنا يظهر جلياً أن المحادة هي محادة اعتقاد أو فعل أولئك وكره ما هم عليه، غير أن في أولئك المشركين وجوه أخرى يجب التعامل معهم وفقها، ومنها برّهم إذا كانوا والدين، أو الاستفادة من نصرتهم إذا كانوا عادلين، وهذا لا يؤثر في ذاك.

إن الإسلام هو الدين المهيمن نظرياً، والذي يجب أن يهيمن واقعياً، لذلك فهو الناظم لكل أتباع الديانات والمذاهب والإيديولوجيات والرؤى غيره... ولكي يكون ناظماً فعلاً، يجب أن تكون له نظرية مستوعبة لجميع هؤلاء.

إن هذه النظرة غائبة عند الكثير من المشتغلين بالدعوة إلى الله، والذين يضعون الإسلام دائماً جزء منحازاً بعيداً عن بقية الأديان والمذاهب، ويقيمون بينه وبينها أسواراً عالية قوامها «حرمة المخالطة» و«حرمة الموادة» و«البراء» وغيرها من الحواجز.

إن الإسلام في المدينة كان شيئاً غير هذا تماما... لم يكن جماعة منحازة، كان نظاماً مؤطراً لجميع الجماعات الدينية والعرقية وغيرها، فكان في ظله يهود ونصارى وغيرهم، واستطاع أن ينظم حياة هؤلاء بناظم الحياة لا بناظم الموت، بناظم المستوعب لا بناظم المبعد المقصي.. وهنا تظهر عظمة هذا الدين الذي يصلح لجميع البشر رغم اختلافهم، بينما لا يصلح غيره كونه يحمل بذور وميكانيزمات الضعف.

إن الإسلام ينطلق من أبجدية «لا إكراه في الدين» و«لكم دينكم ولي ديني»، وهو بذلك يعطي حرية التدين مداها الشرعي الأبعد، الذي هو المدى الوحيد الذي يمكن به استيعاب اختلاف البشر اعتقاداً.. ووفق هذا الاختلاف ينظم الإسلام علاقة الجزئيات المنضوية تحته ويؤطرها ويقننها، ولعل أبرز مثال على ذلك كان في معاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود. فـ «بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع الإسلامي الجديد، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان همه في

ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم ملىء بالتعصب والتغالي.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود، وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التي تمت بين المسلمين أنفسهم، وهاك أهم بنود هذه المعاهدة:

بنود المعاهدة:

١ ـ أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، كذلك لغير بني عوف من اليهود.

٢ ـ وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣ ـ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤ ـ وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٥ ـ وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه.

٦ ـ وإن النصر للمظلوم.

٧ ـ وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

٨ ـ وإن يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة.

٩ ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار

يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٠ ـ وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.

١١ ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم

١٢ ـ وأنه لا يحول هذاالكتاب دون ظالم أو آثم[٤].

ويخطئ المباركفوري في الرحيق المختوم حين يقول تعقيباً وتعليقاً على هذا الذي سقناه:

«وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة ـ ورئيسها ـ إن صح هذا التعبير ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام»[٥].

ويكمن خطأ المباركفوري في كون دولة المدينة كانت دولة رعاية، لا دولة وفاق، لأن الوفاق تصنعه أطراف عدة تتفق بينها، أما الرعاية فهناك طرف واحد غالب يرعى الباقي من الأطراف بما يمتلكه هو من نظرية للحكم.

وأما كون المعاهدة اتفاقاً، فنعم هي اتفاق، لكنه اتفاق لا يصل إلى أن تكون الدولة بموجبه دولة اتفاق، ذلك لأن بنود الاتفاقية إنما هي بالأساس ضمن نظرية الإسلام في تعامله مع غير المسلمين، لا من شروط اليهود، وهي بذلك بنود أعطاها الإسلام لليهود ليؤمّنهم، ولم

٤ ـ الرحيق المختوم ص ٢١٣، ٢١٤

٥ ـ الرحيق المختوم ص ٢١٤

يفرضها اليهود على المسلمين، لذلك كان مردّ الأمر، عند الإشتجار، إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن الذين يضيّقون اليوم مبادئ الإسلام ليجعلوها خاصة بأمة واحدة هم أناس لم يستوعبوا الإسلام كرحمة للبشرية، حتى لمن لم يدخل منها فيه.

إن الكثير من المسلمين قد يصاب بالإحباط حين يرى أن في هذا العالم الكثير من العقائد والأفكار والمذاهب غير الإسلامية، إذ يرى أن من شرط إقامة الإسلام على الأرض أن يدخل جل هؤلاء فيه، والحقيقة أن الله تعالى قال لنبيه، صلى الله عليه وسلم، «لست عليهم بمسيطر» وبازدياد مأساة البشرية واختلافاتها وحروبها وتصادماتها تكون الحاجة ماسة إلى الإسلام كناظم، كراع، كقانون يؤطّر فيه الجميع فيتعايشون في ظل رحمته بسلام وأمان.

إن التفريق بين الشرك والمشرك، والكفر والكافر، أمر إسلامي واضح، فالشرك كلمة لا يمكن أن يكون فيها خير، أما المشرك فقد يكون فيه خير في بعض جوانبه، تماماً كما كان في أبي طالب في نصرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لهذا يتوجب اليوم التفريق بين الشيوعية والشيوعيين، وبين الرأسمالية والرأسماليين، وغير هذا من النظريات... إن الشيوعية مذهب إلحادي مرفوض، أما الشيوعي فهو إنسان قد يكون بعد ذلك مسلماً، بعكس الشيوعية التي لا يمكن أن تنقلب إسلاماً، وهنا يجب التذكير بالتفريق بين الثابت والمتحرك، فالكفر مثلاً ثابت، وهو في النار.. أما الكافر المعين، فلا يحكم له قطعاً بأنه في النار، فقد يتوب، وقد يشفع له شافع، وقد يكون متأولاً.. و... و.. وهكذا. وهذا من مبادئ العقيدة الإسلامية الصحيحة في باب «التكفير العيني»، لذلك

فالواجب التفريق بين الثابت والمتحرك، وبين الكلي الذي لا يتجزأ والكلي الذي يتجزأ... وبما أن الإسلام دين حيوي قائم على توسيع المجال، سواء في استقطاب الآخرين، كمسلمين، أو رحمتهم ورعايتهم والإحسان إليهم كبشر، أو الاستفادة من نقاطهم الخيرة، فإنه يركز على اعتبار المتحرك (المتغير) والمتجزئ من مجالاته العلائقية، سواء كانت هذه العلاقة علاقة أخذ أو علاقة عطاء.

إن رفض الاعتراف بعدل المشرك أو الكافر يعد إسفافاً كبيراً، وغمطاً مريعاً، وهناك اليوم في العالم مؤسسات وجمعيات وهيئات مساندة لحقوق المستضعفين في العالم، حتى وإن كان هؤلاء المستضعفون مسلمين، والمسلمون يجب ألا يديروا ظهورهم أو يزدروا ما تقوم به إن كان صلاحاً ونصرة للمظلوم فعلا... ثم أن الانتصار لا يكون للمظلوم المسلم فقط، لأن الظلم ظلمٌ، كذلك فرفع المظالم عن أي شخص مهما كان، إن كان ما هو واقع عليه ظلما فعلاً، يعد انتصاراً لمكارم الأخلاق التي جاء النبي صلى الله عليه وسلم ليتممها، وهنا يجب أن نلاحظ أن حلف الفضول الذي حاز مباركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد ذلك، لم يكن منطلقه الانتصار لرجل مسلم، بل كان لكافر، وهو هذا الرجل من زبيد. والملاحظ اليوم أن هناك الكثير من الجمعيات التي تدافع عن حقوق البشر والحيوان، كلها أو جلها، جمعيات غربية، ويذهب بعض المسلمين إلى شن هجوم على هذه المؤسسات باعتبار عملها مجرد سراب بقيعة، لكفرها وضلالها، وهذا خطأ فادح، بل إن بعض المسلمين تجده يستهزئ ويسخر من جمعيات حقوق الحيوان في الغرب، كون حقوق الإنسان المسلم مهدورة.. ويتم الانطلاق من هذا الاستهزاء من مغالطات كبرى، منها:

١ ـ كيف تؤسس هيئات المحافظة على حقوق الحيوان وحقوق الإنسان، والإنسان المسلم خاصة، مهدورة؟!!

٢ ـ النظر إلى الأمور بمنظار مكاني خاطئ، فتجد المسلم ينظر إلى الحيوان الغربي نظرة كراهية وبغضاء، كونه قد حاز من الحقوق، وهو حيوان، ما لم يحزه الكثير من البشر في غير الغرب، وهنا يولد «التقابل التنافري» بين الحيوان الغربي والإنسان في غير الغرب.

وتعطيل حق، فقط لأن هناك حقا أكبر منه قد عُطّل، أمر غير مقبول ولا معقول، فهل يترك الرفق بالحيوان في منطقة ما من الأرض، أو عصر ما من العصور، كون الإنسان في مكان آخر تتعرض حقوقه لأبشع أنواع الانتهاكات؟!! والرفق بالحيوان سنّة، ومطلب شرعي، وحديث البغيّ ساقية الكلب دليل على ذلك، كما أن حديث المرأة التي حبست الهرّة دليل آخر... وغيرهذا كثير.. فكان الأوْلى بالمسلمين أن يكونوا سباقين إلى هذا الأمر باعتباره مصدر أجرٍ لقوله صلى الله عليه وسلم: «في كل ذات كبد رطبة أجر».

إن تصحيح هذا المفهوم يبدو أمراً ملحاً عند المسلمين، وأنه لا مجال لذلك إلا بفهم دقيق لنظرية «التجزيء والنسبية» التي لا تردّ الكل بشائبه الجزء... ومن قال أن الكفار والمشركين لا يمكن أن يكونوا عادلين ورافعين للمظالم عن المظلومين بسبب أنهم هم ذاتهم ظلمة، لقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان)، فهو سابح خارج دائرة الصواب والسداد، إذ أن ما سقناه يدل على أنه حتى الكافر أو المشرك يمكن أن يكون له نقاط مضيئة يلتقي فيها المسلمون معه، ومنها محاربة الظلم، وهنا تحضرنا حادثة بناء الكعبة، فقد جاء في كتب السيرة ما يلي:

«لما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها: قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس»[٦].

وهنا نلاحظ أن احتياطهم في تطهير البناء دفعهم إلى أن لا يدخلوا فيه مظلمة أحد من الناس، وهذا عمل خير، رغم أن الفاعلين كانوا مشركين.

إن القدح في نية أو فعل هؤلاء المشركين يعد خطأ، والوليد بن المغيرة ذاته، وهو أحد البناة، كان يصرح أنهم لا يريدون إلا الخير، بصريح هذه اللفظة.. «الخير».

جاء في السيرة:

«ثم إن الناس هابوا هدمها، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لا تُرِعْ ـ أو: لم نزِغ ـ اللهم لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين. فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: إن أصيب، لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإلا فقد رضي الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله. فهدم وهدم الناس معه»[٧].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم الحجارة، وكانوا يرفعون أزرهم على عواتقهم ففعل ذلك رسول الله صلى الله

٦ ـ مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لمحمد بن عبد الوهاب ص ٧٠

٧ ـ مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لمحمد بن عبد الوهاب ص ٧٠

عليه وسلم، فلُبِطَ به (أي طاح على وجهه) ونودي: «استر عورتك» فما رؤيت له عورة بعد ذلك[٨].

إن إبعاد الإسلام عن معترك الحياة العالمية، وخروج المسلمين من دائرة التفاعل البشري العالمي، وعدم مشاركتهم للآخرين حتى فيما هو حق، يعد أسوأ حصر لدائرة النور الذي أنزله الله للناس كافة.

وهنا نحب أن نقول أن القراءة الدقيقة لحوادث السيرة النبوية، ولنصوص الكتاب والسنة ستضعنا أمام حقيقة ثابتة تؤكد نظرية «التجزيئ والنسبية» التي يجب الانطلاق منها في علاقة المسلم مع غيره، سواء كان مسلماً يخلط الحق بالباطل كما قال القرآن الكريم: ﴿خلطوا عملاً صالحاً آخر سيئاً عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أو بغير المسلمين ممن له جوانب مضيئة يلتقي فيها مع مقررات أمهات الفضائل، ومن ثَم مع أهل الحق.

إن تبني الدفاع عن المظلومين أمر واجب بنص القرآن الذي استنكر تركه في قوله تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾[٩]..

والمعتبر هنا هو رفع الظلم، وذلك قد يتأتى بالقتال، وقد يتأتى بغيره، لذلك فإن المقصود بالأصالة هنا ليس هو القتال، بل رفع الظلم الذي قد يتأتى بكلمة.

---

٨ ـ مختصر سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمد بن عبد الوهاب ص٧٠

٩ ـ النساء ـ آية ٧٥